إسماعيل صبري عبد الله

١٩٢٥- ٢٠٠٦

سئل الدكتور إسماعيل صبري عبد الله ذات مرة من قبل أحد محاوريه من الاعلاميين العرب عن الصفة التي يحب أن يعرّف بها، فأجاب ببساطة: "أنا مفكر". وقد أراد من جوابه هذا أن يوحد بين صفاته كلها. وهي محطات تعددت بتعدد ميادين نشاطه، وتوحدت بالصفة التي حددها هو لنفسه بقوله إنه مفكر. إذ أن أي تعريف له بواحدة من صفاته هو إجتزاء لشخصيته المتكاملة المتعددة الجوانب. فهو كان، في الأساس، أستاذاً جامعياً في علم الاقتصاد. وكان بصفته تلك يحمل صفة العالم في ميدان معقد وصعب وواسع وحمّال أوجه وجوانب مختلفة ومتناقضة. وهو كان باحثاً إقتصادياً مجتهداً وخبيراً عالمياً في الاقتصاد والمال مشهود له. ترأس في فترات مختلفة من حياته ونشاطه عدداً من مؤسسات البحث الاقتصادي، لا سيما ما يتعلق منها بمستقبل البلدان النامية، أو ما يسمى ببلدان الجنوب. فضلاً عن ترؤسه مجموعات بحث في مصر وفي البلدان العربية، في مؤسسات خاصة وفي مؤسسات تابعة للدولة المصرية وللجامعة العربية. وكان وزيراً للاقتصاد في مصر أكثر من مرة. وكان، إلى جانب ذلك كله، قائداً سياسياً يسارياً، ومفكراً ماركسياً، وذا باع طويل في ميدان التجديد في الفكر الماركسي ذاته وفي المشروع الاشتراكي الذي ينتسب إلى ماركس. ألا تشير كل تلك الصفات والمواقع التي احتلها إلى أنه كان محقاً في جوابه عن ذلك السؤال الذي طرحة عليه ذلك الاعلامي البارع؟

ولد إسماعيل صبري عبد الله في عام ١٩٢٤ في قرية في صعيد مصر إسمها "المريومون". وهي قرية قديمة ترجع في أصولها إلى زمن الفراعنة، وتعني لهم الاله "أمون". نشأ إسماعيل في بيئة لها خصوصيتها، كما يقول في حديثه إلى مجلة "الهلال" عن مرحلة تكوينه. فقد ضمّ منزلهم الذي ولد فيه مكتبة ضخمة احتوت على كلاسيكيات الأدب العربي والفقه الاسلامي واللغة العربية. كما ضمّت تاريخ إبن خلدون كاملاً، وكتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني، فضلاً عن دواوين الشعر العربي كاملة. كان والده من الأعيان.

وكان مثقفاً وقارئاً. توفي عندما كان إسماعيل لا يزال في التاسعة من عمره. قرأ إسماعيل في مكتبة والده كتاب "أخبار علوم الدين" وهو في الثانية عشرة من عمره. وإستمر ينهل من الثقافة مع أخوته، وكان أصغرهم سناً، ويقرأ ما يقتنونه من مجلات وكتب. وكانت مجلات "الرسالة" و"الثقافة" و"الهلال" و"المقتطف" أهم تلك المجلات. وقد ساعدته تلك البيئة الثقافية في أن يتمكن من اللغة العربية، وأن يمتلك زاداً ثقافياً كبيراً منذ البدايات. وهو الزاد الذي أسّس للمرحلة التالية من حياته.

يقول إسماعيل في سرد سيرته التكوينية بأن عائلته كانت تهتم بالسياسة إلى جانب إهتمامها بالثقافة. وقد أدى إهتمام أجداده بالسياسة إلى إختلافهم مع الخديوي إسماعيل الذي نفاهم إلى السودان، ولم يعودوا إلى مصر إلا بعد أن ترك الخديوي إسماعيل العرش. كان والده وفدياً. وفصل من منصبه كعمدة بسبب إنتمائه السياسي ذاك. وكان إخوة إسماعيل نشطاء في العمل السياسي كذلك. وهكذا يكون إسماعيل قد ورث تركة ثقافية وسياسية مهمة من عائلته أسست للمرحلة اللاحقة من حياته. ويقول إسماعيل أنه تعلم من الصعيد ومن أسرته نزعة التمرد. واكتسب مجموعة من القيم التي كانت معروفة في الصعيد منذ القدم، منها الكرم والكرامة والتضامن.

انتقل إسماعيل من القرية إلى القاهرة مع إخوته. وسكنوا في حي عابدين. وكان الحي في حينه معروفاً بأنه الحي الذي يسكنه ميسورو الحال. التحق بمدرسة عابدين الابتدائية في عام ١٩٣٣. والتحق بعدها بمدرسة الخديوي إسماعيل الثانوية في عام ١٩٣٧. ثم التحق بكلية الحقوق بعد إنتهاء دراسته الثانوية. إشترك في أول مظاهرة سياسية وهو في المدرسة الثانوية. وكان ذلك احتجاجاً على قرار الملك بإقالة الحكومة الوفدية. في الجامعة بدأ يقرأ الكتب الماركسية. وكانت مشاهداته لحال فقراء بلاده تجعله أكثر إهتماماً بالماركسية وأكثر إقتراباً من طرائقها لمعالجة قضايا الفقراء. فأقبل على قراءة الكتب الماركسية

بنهم. وكانت الماركسية، بالنسبة إليه منذ ذلك الحين، تشكل، في الآن ذاته، الحل الحقيقي لمشاكل الفقر والفقراء والحل الصحيح للمسألة الوطنية، المتمثلة بالتحرر من الاستعمار وبناء دولة وطنية مستقلة. وطوال عمله في السياسة في الجامعة لم تقبض الشرطة عليه إلا في عام ١٩٤٦. وهو العام الذي وقعت فيه الانتفاضة المعروفة التي كانت تقودها "لجنة العمال والطلبة"، التي كان لليساريين دور أساسي في تشكيلها وفي قيادتها. لكن السياسة لم تمنع إهتمام الفتى إسماعيل بالثقافة. بل هو تابع قراءاته في ميادينها المختلفة. وكان من أكثر الذين قرأ لهم في تلك الفترة من المصريين: طه حسين في كتاباته عن الأدب العربي، ودريني خشبة في كتبه التي تهتم بإحياء التراث اليوناني الميثولوجي القديم، وتوفيق الحكيم في مسرحياته، وابراهيم المازني ومحمد حسين هيكل ومحمد مندور.

سافر إسماعيل في عام ١٩٤٦ إلى باريس للحصول على الدكتوراه. واختار لتخصصه مادة الاقتصاد. ويقول إسماعيل في سيرته إن إهتمامه بقضايا الفقر والفقراء في مصر واهتمامه بالبحث عن الوسائل التي تقود إلى تطور بلده، هذان الاهتمامان هما اللذان قاداه إلى إختيار مادة الاقتصاد للحصول على الدكتوراه في ميدانها. لكنه ظل يمارس إهتمامه بكل فروع الثقافة وينهل منها، لا سيما ما يتصل منها بالآداب والفنون بما في ذلك الموسيقى. عاد إلى مصر بعد حصوله على الدكتوراه ليفيد بلاده مما إكتسبه من علم ومعرفة. ولم يستجب لطلبات أساتذته، الذين كانوا يطمعون ببقائه في فرنسا للإفادة من تفوقه في علم الاقتصاد. ويقول إسماعيل أن قراره ذاك كان من أهم القرارات التي اتخذها في حياته.

تلك هي سيرة التكوين الأولى لشخصية إسماعيل صبري عبد الله. لكن سيرته الأساسية التي كونت شخصيته التي عرف بها قد بدأت بعد عودته من فرنسا في عام ١٩٥١ حاملاً لقب دكتور في الاقتصاد بأعلى تقدير. إذ بدأ يمارس في المرحلة الأولى من عودته التدريس في جامعة الاسكندرية ثم في جامعة

القاهرة. وانتقل، بين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥، إلى العمل مستشاراً للمالية والاقتصاد في مكتب رئيس الوزراء. وكان قد شكل قبل ذلك مع فؤاد مرسي وأبو سيف يوسف الحزب الشيوعي المصري، كواحد من التنظيمات الشيوعية المصرية المتعددة. اعتقل في عام ١٩٥٩ مع العديد من المثقفين من زملائه، الشيوعيين منهم والليبراليين، في إطار الحملة التي قامت بها قيادة ثورة يوليو ضد من كانوا قد صنفوا معادين للوحدة المصرية – السورية في كل من إقليميّ الجمهورية العربية المتحدة، مصر وسوريا. وظل يدخل السجن ويخرج منه، ويتنقل في مناصب متعددة في القطاعين العام والخاص، وفي الوزارات وخارجها، وفي القطاع المصرفي، وفي سوى ذلك من الميادين التي كانت تؤهله لها كفاءاته العلمية في الميدان الاقتصادي. وهي مناصب تعددت وتعددت إسهاماته فيها في أعلى درجة من الكفاءة العلمية، وفي أعلى درجة من المسؤولية الوطنية التي رافقت سيرة حياته كلها. ذلك أنه كان في كل مهمة كلّف بها، سواء في مؤسسات الدولة أم في القطاع الخاص، ملتزماً على الدوام في السعي لتقديم كفاءاته العلمية في خدمة بلده. وكان ذلك دأبه في كل المهمات التي أوكلت إليه على الصعيدين العربي والعالمي، لا سيما ما يتصل منها بقضايا البلدان النامية.

من الصعب ومن غير المفيد الدخول في تعداد المؤسسات التي عمل فيها إسماعيل صبري عبد الله، أو التي ترأسها، أو المهام الرسمية التي كلّف بها في مصر وفي العالم العربي وعلى الصعيد العالمي. فتعدادها لا يزيد في التعريف بكفاءاته وبدوره المتميز في كل تلك الميادين. سأكتفي بالإشارة هنا إلى خمسة منها، على سبيل المثال. وهي تشير، من حيث أهميتها، إلى أهمية الدور الذي لعبه إسماعيل صبري عبد الله فيها، على قاعدة ما أشرت إليه من إحساسه بالمسؤولية التي التزم بها، المسؤولية التي وضعته فيها معارفه العلمية في ميدان البحث الاقتصادي.

المهمة الأولى من تلك المهمات التي أتوقف عندها هي إدارته مع صديقه إبراهيم سعد الدين للمشروع البحثي بعنوان "المستقبلات العربية البديلة" الذي تعاقد على إجرائه في منتدى العالم الثالث (مكتب الشرق الأوسط) مع جامعة الأمم المتحدة، بين عامي ١٩٨١ و١٩٨٦. وقد نشر من أعمال ذلك المشروع خمسة عشر كتاباً باللغة العربية، وكتاباً واحداً باللغة الانجليزية صدر بعنوان "صور المستقبل العربي". المهمة الثانية تتمثل باختياره بصفة شخصية من قبل المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة، مع أربعة وعشرين باحثاً، إلى عضوية لجنة تخطيط التنمية. وإستمرت عضويته في تلك اللجنة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٥، وذلك لفترتين متواصلتين. المهمة الثالثة تتمثل في إختياره من قبل الرئيس السابق لجمهورية تنزانيا جوليوس نيبريري لعضوية "لجنة الجنوب" التي تشكلت بناء على توصية من قبل مؤتمر دول عدم الانحياز الذي عقد في مدينة هراري عاصمة زمبابوي. وكان واحداً من بين ثلاثة وعشرين شخصية مرموقة من القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وإستمرت عضويته في تلك اللجنة من عام ١٩٨٧ حتى عام ١٩٩٠. المهمة الرابعة هي التي تتمثل في إدارته منذ عام ١٩٩٧ بالإشتراك مع صديقيه إبراهيم سعد الدين وإبراهيم العيسوي للمشروع البحثي "مصر ٢٠٢٠". وهو المشروع الذي كان ينفذه منتدى العالم الثالث بالتعاون مع عدد من الهيئات الممولة، مثل البرنامج الانمائي للأمم المتحدة وبنك الاستثمار القومي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي. وهذا المشروع هو الذي أعطاه إسماعيل كل جهده حتى آخر لحظة من حياته. ومن المعروف أن إسماعيل كان عضواً في المجمع العلمي المصري مدى الحياة.

تعرفت إلى إسماعيل صبري عبد الله في أواخر ستينات القرن الماضي. وأصبحنا صديقين منذ ذلك التاريخ. وكان من أولى اللقاءات التي أذكرها ذلك اللقاء الذي جرى في مبنى جريدة "الأهرام"، في مكاتب مجلة "الطليعة" المصرية التي كان يرأس تحريرها لطفي الخولي، وكان إسماعيل أحد أركانها. إستمرت

لقاءاتي مع إسماعيل حتى أيام حياته الأخيرة. وقد رافقت التحوّلات التي حصلت في سيرة إسماعيل كواحد من كبارقادة الحركة الشيوعية في مصر، بتنوعها وتعدد إتجاهات تنظيماتها. وكان من أبرز تلك المحطات في الحركة الشيوعية المصرية تلك التي بدأت في عام ١٩٦٥، عندما دعا الرئيس جمال عبد الناصر قادة التنظيمات الشيوعية بعد إطلاق سراح المعتقلين منهم إلى حل تنظيماتهم والانخراط في الاتحاد الاشتراكي. ولبوا طلبه جميعاً. وصار قياديوهم أعضاء بارزين في قيادة التنظيم الموحد للثورة المصرية على إمتداد حياة الرئيس عبد الناصر. ثم تغيرت الظروف بعد وفاة الرئيس عبد الناصر وانتقال السلطة إلى الرئيس أنور السادات. في تلك الفترة شغل إسماعيل منصب نائب وزير في عام ١٩٧١، ثم وزيراً في وزارتين متتاليتين. ثم غادر العمل في المؤسسات الرسمية وصب كل جهوده في البحث في ميدان إهتمامه وتخصصه، الميدان الاقتصادي، في المؤسسات التي أشرت إلى الأساس منها. لكنه لم يتوقف عن الكتابة في المجلات المصرية والعربية. ولم يتوقف عن إصدار التقارير، لا سيما ما يتعلق منها بقضايا التنمية، وهي كانت كثيرة. لكنه كان مهموماً بقضايا الوحدة العربية. وكان من أهم ما فكر فيه في هذا المجال، إلى جانب العديد من الوثائق التي أصدرها تأكيداً على أهمية وضرورة التكامل الاقتصادي العربي، كتابه الذي صدر عن دار الأهرام في عام ١٩٩٥ تحت عنوان "وحدة الأمة العربية – المصير والمسيرة". في هذا الكتاب المهم يؤكد إسماعيل ثقته بأن الوحدة العربية ضرورة ماسة لكل البلدان العربية، بالمفرد وبالجمع. وهو يرى أن الزمن مهما طال سيفرض على العرب، المسؤولين منهم في مواقع السلطة والعاملين في المؤسسات التابعة للجامعة العربية والمؤسسات الوحدوية الخارجة عن إطارها، سيفرض على هؤلاء جميعاً الانخراط العملي في إيجاد الصيغة الملائمة لتوحيد طاقات الأمة، أسوة بما هو حاصل في كل بلدان العالم، ومنها بالتحديد بلدان أوروبا.

لنقرأ بعضاً من مقدمته لهذا الكتاب التي يعرب فيها عن همومه الوحدوية، وعن تفاؤله في دور الأجيال الشابة في تحقيق وحدة شعوبنا وبلداننا: "ليس هذا الكتاب ردة فعل إنفعالية على ما يفعله العرب بأنفسهم. نحن نعيش بين غمة وغصة، ويكثر حولنا الطبل والزمر الصاخب، وهو في آذاننا أقرب شيء إلى الندب والنحيب. لكن عوامل التعرية وجراثيم المرض كانت تفعل فعلها منذ زمن طويل. وقد شغلتني نذر التدهور منذ ثلاثين عاماً. لقد تفاءلت في بدء نشاط مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ورأيت فيه بشائر تقدم على الطريق الصحيح. كنت قلقاً إزاء طموحات رأيتها سابقة لأوانها ولن تنتج نفعاً مما من شأنه إشاعة جو من الاحباط. ومن متابعتي لنشأة السوق الأوروبية المشتركة أدركت أن لها أساساً مادياً نفتقده تماماً، ألا وهو أن القوى الاقتصادية والاجتماعية المتشابكة المصالح كانت ترى في الحدود الجمركية عقبة كؤوداً على طريق نموها على نحو يكافئ نشاط الشركات الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية. فما كاد السياج الجمركي يقصر أو يختفي حتى تضاعف حجم التجارة فيما بين الدول الست التي وقعت معاهدة روما. وكنت أعرف إستحالة أن يتحقق مثل هذا النمو السريع فيما بين الأطراف العربية من تجارة تكاد لا تستحق الذكر. وقد طرحت في مناقشاتي مع أول أمين عام لمجلس الوحدة ضرورة المبادرة إلى بناء قاعدة إقتصادية مشتركة تصبح ركيزة مادية للتكامل الاقتصادي العربي. ومن ثم طرحت فكرة الشركات العربية المشتركة، وضرورة تبادل المعلومات الاقتصادية بين الأقطار العربية تمهيداً لإستكمالها وتنميطها بحيث تزيد المعرفة الدقيقة والمقارنة واكتشاف مجالات التعاون. ثم كنت عضواً بلجنة العشرين التي شكلتها الأمانة العامة على أساس الكفاءة الشخصية ودون التقيد بمبدأ التمثيل المتكافئ لكل أعضاء جماعة الدول العربية، وذلك لاقتراح "إستراتيجية للعمل الاقتصادي العربي المشترك"، وأمّلت أن تتاح الفرصة لهذه المجموعة من أهل الرأي والخبرة لتؤصل المفاهيم وتقترح الأولويات وتحدد بعض المشروعات المطلوبة بشيء من التفصيل... ويحمل

هذا الكتاب رؤية مستقبلية هي بالقطع أثمن ما فيه (إن كان فيه شيء ثمين) أتمنى أن تثير الجدل والتساؤل والنقد واقتراح البدائل. فالأمر الحيوي هو في اعتقادي أن نوجه النظر والفكر لنؤثر فيما يحدث وسيحدث بدل الانصراف إلى ماض كان ولا سبيل لبعثه. لن يغير امرء ما حدث، ويمكن أن يؤثر فيما سيحدث. وأوجّه حديثي لهذا السبب أساساً إلى شباب العرب، إلى الجيل الذي سيرى ثمرة لنضاله إن حقت العزيمة وساد التبصر وأعمل الناس العقل".

غير أن إسماعيل صبري عبد الله صاحب هذه السيرة الغينة قد ظل على الدوام المفكر الكبير، المفكر المهموم بمستقبل مصر وبمستقبل الأمة العربية. وقد تميز فكره بالعمق وبالقدرة على رؤية التحوّلات التي يحفل بها العالم المعاصر، والتي ما تزال بلداننا بعيدة عن الاندماج فيها، والاستفادة من الايجابي فيها، وتجنب السلبي والمساهمة في مقاومته. وقد حفلت كتاباته وأحاديثه وكتبه بالتوسع في هذه القضايا. وكانت له مساهمات كبيرة في تحديد مفهوم العولمة المعاصرة. وشارك في العديد من الندوات الفكرية التي عالجت هذه القضية والقضايا الأخرى المرتبطة بها. وكانت واحدة من مساهماته الكبيرة في هذا البحث خلال مشاركته في الندورة التي نظمتها مجلة "الطريق" اللبنانية في عام ١٩٩٧، الندوة المهداة إلى المفكر الماركسي اللبناني الكبير الشهيد مهدي عامل.

كان إسماعيل يرى إلى العولمة، في شكل عام، وفي العولمة الرأسمالية كجانب من العولمة، ظاهرة طبيعية في مسار تطور حركة التاريخ في العصر الحديث. وكان يميّز بوضوح بين الجانب المتعلق بتطور المعارف والتقنيات التي كانت تشير إلى وحدة العالم كعملية طبيعة وكظاهرة إيجابية، وبين الجانب المتعلق بتوحش النظام الرأسمالي، الذي كان الرأسمال العابر للقارات مظهراً من مظاهرها الخطيرة والعنيفة في الآن ذاته.

وجدير بالذكر هنا أن ثقافة إسماعيل صبري عبد الله الواسعة، وامتلاكه المحكم لثلاث لغات، العربية والفرنسية والانجليزية، هي التي ساعدته في أن يكون ذا معرفة موسوعية في كل ما يتصل بميدان إهتمامه الأساسي، الاقتصاد.

غير أن إسماعيل عالم الاقتصاد والباحث والمفكر الماركسي العتيق المجدد قد أعطى من جهده لاهتماماته السياسية كل ما يملك من طاقات. وإذا كان قد بدأ حياته قائداً في إحدى التنظيمات الشيوعية المصرية، ثم أحد قادة الاتحاد الاشتراكي العربي في آخر عهد الرئيس عبد الناصر، فإنه قد إنتقل مع خالد محي الدين وعدد كبير من الماركسيين والناصريين وعدد من المفكرين الاسلاميين المستنيرين إلى لعب دور أساسي في حزب التجمع المصري الوحدوي التقدمي، منذ تأسيس هذا الحزب في أواسط سبعينات القرن الماضي حتى آخر أيام حياته. وكان قد غادر الحياة في عام ٢٠٠٠.